بسم الله الرحمن الرحيم

١٦ / ١ / ١٤٤٢

"شر الدواب"

نظرات في آيات من سورة الأنفال

الحمد لله...

شر الخلق والخليقة، وأفسد البرية والبرايا، لهم أعينٌ مظلمة، وآذانٌ مُعطلة، وألسنةٌ مُنعقدة، كل الدوابّ في الأرض مُطيعة لله، إلا هم، مع أنهم ضرب من بني آدم، أكرمهم الله بالعقول، ولكنْ شبَّههم بالأنعام فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ الأعراف: ١٧٩، بل حكم الله عليهم بأنهم شرُّ مَنْ عليها! إنّهم الذين كفروا بالله، وبرسول الله ﷺ، وجعلوا عقولَهم في أوعية شهواتهم وأهوائهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنفال: ٥٥.

تشبيه الكافر بالأصم الأبكم.

ومن البلاغة القرآنية في وصفهم: أنْ شبَّههم بمن تعطلت جوارحُهم عن الإدراك: فلا سمع، ولا منطق، مع

أنهم يسمعون وينطقون، لكنّهم إنْ سمعوا سمعوا الباطل، وإن نطقوا نطقوا بالضلالة: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ الأنفال: ٢، الصُّمُّ: عن استماع الحق، البُكْم عن النطق به.

عندما يَصِمُّ العقلُ ويعمى، مع تعطل الجوارح!

وإن أعظم بلاء يُبتلى به المرء أن يرزقه الله النعم لمصلحته، فيعطّلها عن بلوغها لغاياتها، فنعمةُ السمع ونعمةُ المنطق ونعمةُ النظر من أعظم النعم المُهداة، وأشرفِ العطايا المُسداة، فإذا عُطّلت عن منافعها الحقيقية والتي تصبُّ في سماع الحق، والنطقِ به، والنظرِ إليه، فقد انقلبت هذه الجوارح إلى أَغْلِفةٍ وغشاوات، يجثُم عليها حُجُبٌ غليظةٌ تمنع عن الفهم، يتولد منها عمى القلب!

نعم. عمى القلب، فلا تسأل بعد ذلك عن القلوب التي لا تعقل: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ البقرة: ١٧١

وتأمل يا عبد الله قولَه تعالى: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فإن فيها بيانَ سوءِ حالِهم، فإن الأصمَّ الأبكمَ إذا كان له عقلٌ ربما يفهم

بعضَ الأمور عن طريق الإشارة باليد، ويهتدي بذلك إلى بعض مطالبِه، وأما إذا كان فاقدًا للعقل أيضًا فهو الغايةُ في الشرّية وسوءِ الحال، وبذلك يظهرُ كونُهم شرًا من البهائم، فصاروا أخسّ من كل خسيس[1]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦

المعاندة والمكابرة من أسباب عدم العقل !

ثم بين الله جل في علاه أنه لا فهم لهم صحيح، ولا قصد لهم صريح فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ الأنفال: ٢٣.

ومعنى﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، لأنهم يسمعون الآيات القرآنية، تطرق آذانَهم ليلَ نهار، ولكنَّ القلوب لمّا كانت صَدِئَةً، أصبحتْ كالكوز مُجَخِّيَة، لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا، ومع ذلك فإن الله لو أفهمهم آياتِه لم يُأمنوا؛ لأجل مكابرتهم ومعاندتهم الشديدة.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/١٥) .

تحذير المؤمنين من سلوك مسلك المعاندين !

يا عبدالله. لمّا بين الله شرَّ الدواب، وبين ما هم فيه من أسباب الغواية والضلالة، بسبب إعراضهم، وتعطيل جوارحهم عن الإقبال للحق، أمرَ المؤمنين أن يُقبلوا عليه، وأن يستجيبوا لما لديه، فقال جل شأنُه:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾الأنفال: ٢٤، أي: فلا تكونوا كشر الدواب، الذين لا عقول ولا قلوب.

روى البخاري عن أبي سعيد بن المُعَلّى-رضي الله عنه-، قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال ﷺ: "ألم يقل الله:﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾.

دعوة إلى الحياة الحقيقة !

أتتدري ما سبب الحياة الحقيقية؟ إنها في:﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾، فسمى دعوته ﷺ حياة،

قال قتادة: "هو هذا القرآن، فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة"(١).

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ استجيبوا للطاعة، ففيها الحياة الأبدية، والنعمة السرمدية.

يا عبدالله. إن الحياة النافعة إنما تحصل باستجابةٍ لله ولرسوله ﷺ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له... فالحياة الحقيقية الطيبة هي بالاستجابة ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإنْ ماتوا، وغيرُهم الأموات وإن حَيَوا، فمن فاته جزءٌ من الإسلام فاته جزءٌ من الحياة (٢).

حياة الروح وحياة القلب!

"كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه المَلَك فيصير حيًّا بذلك النفخ، فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقى الله إليه ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ النحل: ٢"(٣).

---

(١) تفسير الطبري (١٣/٤٦٣).

(٢) انظر: التفسير القيم (ص:٢٩٨).

(٣) التفسير القيم (ص:٣٠٠).

الخطبة الثانية:

الحمد لله...

لا حياة للقلب ما لم يأذن الله!

يا عبدالله. إنه لن توهب لك حياة القلب، والتي هي أكمل الحياة مالم يأذن الله. تأمل قوله تعالى:

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ الأنفال: ٢٤

فالله أملكُ لقلبك منك، وهو يحول بينك وبينه إذا شاء، فوالله لا يُدرك العبدُ شيئًا من الإيمان إلا أن يشاء الله، ولن يعيَ شيئًا من التخاطبات والمراسلات إلا أن يشاء الله.

فالله "يحول بين المؤمن والكفر، وبين الكافر والإيمان".

والله "يحول بينه المرء وبين عقله".

والله "يحول بين الإنسان وبين قلبه، حتى لا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه" [1].

فلا حول ولاقوة إلا بالله.

---

(١) انظر: الطبري (٤٧٢/١٣)، فقد رجح احتمال الآية كلَّ هذه المعاني .

بادروا بالاستجابة، ولا تستبطئوا عنها.

يا عبدالله. إنك إن تثاقلت عن الاستجابة وأبطأت عنها فلا تأمن من الله أن يحول بينك وبين قلبك. فلا يُمَكّنُك بعد ذلك من الاستجابة.

فإن الله عاقب الكافرين بالحيرة، والشك، والاضطراب والقلق لما أبطؤوا عن الاستجابة للحق بعد وضوحه واستبانته، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام: ١١٠ "[1].

اطلبوا قلوبكم من مالكها.

يا عبدالله. لمّا كان قلبُك ليس مُلكًا لك، فاطلب صلاحَه من مالكه، اطلب عقل قلبك من مَلِكه.

يا عبدالله. أمَا وقد علمتَ ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فخفْ على قلبك من انصرافه عنك، خف على قلبك من تَخَبُّطه في دياجر الظلم، ومغبَّات الفتن، فإنه لن يأتيَ به إلا الله.

---

(١) تفسير ابن القيم (٣٠١/١٣) .

فاطلب من الله أن يأتيَ بقلبك.

فقد كان ﷺ يُكثِر أن يقولَ: "يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِكَ" قال أنس: يا نبيَّ اللَّهِ آمنَّا بِكَ وبما جئتَ بهِ فَهل تخافُ علَينا؟ قالَ: "نعَم. إنَّ القلوبَ بينَ إصبَعَينِ من أصابعِ اللَّهِ، يقلِّبُها كيفَ شاءَ" (١).

"وإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، فتختلف قلوبُكم،...فليكثر العبد من قول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك"(٢).

اللهم ألهمنا رشدنا، واصرف عنا شر دوابك، وثبت قلوبنا، فلا مثبت لها إلا أنت، وهب لها الحياة، فلا يهبُ لها الحياة إلا أنت.

عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد

---

(١) رواه الترمذي وإسناده حسن.

(١) تفسير السعدي (ص:٣١٨)